# ولا ترابه !

## الأستاذ عباس محمود العقاد

قلت فيما كتبت منذ أسبوعين عن رسالة الأديب أنني أستعيذ بالله من اليوم الذي تتوقف فيه أقدار الأدباء على مقاييس الدولة ، لأن سيطرة الدولة على أقدار الأدباء معناها إخضاع الفكر الإنساني للعرف الشائع مضافاً إليه إجحاف الهوى والمحاباة ، وليس من وراء هذا الإخضاع خير للفكر ولا للأديب

إن تقويم أعمال الموظفين من أخص أعمال الدولة ، لأن الوظائف تجري على قياس معلوم في نطاق محدود ، وليس فيها مجال للتعمق ولا للاغراق ولا لاختلاف المذاهب والشروح

ومع هذا تبحث عن الإنصاف في محاسبة الموظفين فترى عشرين مثلاً للاجحاف والإهمال والنسيان وسوء التقدير إلى جانب مثل واحد من أمثلة الجزاء الحق والقسطاس المستقيم

فكيف تكون الحال في تقويم الأدب والأدباء ؟ وكيف تكون الحال في الجديد من القاييس الأدبية ، ولا خير في المقاييس الأدبية إن لم يحسب فيها حساب التجديد والإبداع ؟ وكيف تكون الحال في الرأي المستقل والخلق المستقل والعمل المستقل ، ولا خير في الأدباء إن لم يكن لهم استقلال في الآراء والأخلاق والأعمال ؟

أحسب أنني تحدثت بالبداهة يوم استعنت بالله من تسليط الدولة على مقاييس التفكير وأقدار المفكرين

ولكننا في البلد الذي « من فاته الميري فيه وجب عليه أن يتمرغ بترابه ... »، فلا عجب أن يثقل ذلك القال على كثير من أصحاب الأطماع والآمال ، وأن يأبى بعض الذين كتبوا في الصحف وبعض الذين كتبوا إليّ إلا أن يكونوا كتاباً « أميريين » ... فإن لم يكونوا أميريين فلا أقل من التراب وما شابه التراب

ويكتب إليّ من يقول إن مقاييس الدولة في مصر لن تدوم على ما أصابها من قبل أو يصيبها الآن من العيوب ، فهي في الغد كفيلة بحسن التقويم ، ومتى حسن التقويم فلماذا هذا الحذر من الجور القديم ؟

وتشاء المصادفة أن أقرأ هذا وأقرأ معه فصلاً مسهباً عن « الأربعين الخالدين » في فرنسا منقولاً في المجلة الإنجليزية « العصر الحي » Living Age عن الكاتب الفرنسي هنري بلامي Henry Bellamy يتناول فيه مجمع فرنسا المشهور وأساليب اختيار الأربعين الخالدين من أعضائه ، فإذا هي حال لا نتمنى تكرارها في بلادنا على قرط الحاجة فيها إلى التشجيع والإغضاء عن بعض العيوب .

وحسبك من تلخيص هذه الحالة أن تعرف أسماء الذين استثناهم المجمع من زمرة الأدباء النابهين وبينهم أمثال : موليير ، وروسو ، وديدرو ، وميرابو ، وأندريه شنييه ، وستندال ، وفلوبير ، وجوتييه ، وبودلير ، وبيشليه ، وفرلين ، وملارميه

وفي وسعنا أن نضيف إليهم ديكارت ، ومالبرانش ، وباسكال وبومارشيه ، وهلباخ ، وزولا ، وموباسان وغيرهم من أدباء هذه الطبقة الذين عرفهم العالم بأسره ولم يعرفهم المجمع الأدبي في بلادهم !

حسبك من تلخيص تلك الحالة أن تعرف أسماء هؤلاء وأشباه هؤلاء ، بعد أن مضت ثلاثة قرون على نشأة ذلك المجمع في عهد الكاردينال ريشيليه ، فماذا أغنى وجود المجمع واعتراف الدولة به في إنصاف ذوي العقول والقرائح والأقلام ؟

نعم إن أصحابنا الخالدين قد اعترفوا بأقدار فولتير ، ولافونتين وريتان ، وأناتول فرانس ، وأناس من طرازهم تفتخر بهم الآداب الفرنسية والآداب العالمية . . .

ولكن متى اعترفوا بأقدار أولئك الأقطاب الأفذاذ ؟ إنهم لم يعترفوا بهم إلا بعد أن اعترف بهم « رجل الشارع » كما يقولون ، وشاع ذكرهم في الأقطار الغربية والشرقية ، فلم يكن للخالدين فضل على غير الخالدين في تقويم القيم وتصحيح الموازين

فإذا كانت مجامع الدولة على منوال الأكاديمية فرانسيز تجهل من جهلت وتنسى من نسيت وتنكر من أنكرت ، ثم تنظر إلى من شهدت لهم بالفضل فإذا هم مشهود لهم بفضلهم قبل أن يصلوا إلى عتباتها ، فما أغنى بنى الإنسان وأغنى أصحاب القرائح والأذهان

عن ذلك القياس وذلك الميزان ! وما أولانا أن نرجع إلى «الأصل» وأن نكتفي به دون ما عداه. إذا كان الأصل هو رأي القراء والتبع اللاحق به هو رأي الخالدين من أولئك الأعضاء الأحلاء !

* * *

قد يقال إن الكتاب والشعراء يستفيدون الجوائز التي توزعها الدولة على أصحاب الآثار الجديدة والطرائف البارعة في كل عام

فإن قيل هذا فلنعلم أن الأعضاء الخالدين لا يقرأون الجديد. وقد قيل إن الأديب الشهير ألفريد دي ڤيني زار « الخالد » رويه كولار ليطلب منه التزكية والشهادة لنصح منه رأياً لم يعجبه، فسأله : كيف تحكم على كاتب لم تقرأ سطراً واحداً من كتبه ! فأجابه الخالد وهو راض عن جوابه : يا صاحبي ! إنني لم أقرأ شيئاً قط منذ ثلاثين سنة . وحسب من كان في عمري أن يعود إلى مراجعة الأقدمين حيناً بعد حين »

قال دي ڤيني: «إذن كيف تبدي رأيك في المجمع يا سيدي؟»

قال الخالد متعجباً : « كيف أبدي رأيي ؟ هذا من شأني . إنني أذهب إلى هناك ولا يعنيني أن أخبرك عن طريقتي في إبداء رأيي ، ولكنني أبديه ... »

وقال كاتب المقال الذي أشرنا إليه والمهدة عليه : إن الشاعرة لويس كوليه التي عاشت في عهد الامبراطورية الثانية وأنعمت بالسعادة على كثير من الكتاب والشعراء تذكرت يوماً أنها لم تحضر قصيدتها لجائزة المجمع ولم تشأ أن تضيع عليها تلك الجائزة، فما هو إلا أن دخل إليها فلوبير وبوبليه زائرين حتى أفضت إليهما بهمها، فما زاد الخبيثان على أن فتحا دواوين لامرتين ونقلا منها مئات السطور من هنا وهناك ووصلا بينها على ما يقتضيه حسن الحبك والصياغة ، وأرسلا القصيدة إلى المحكمين فظفرت بالجزاء والثناء وتهنئة الأعضاء !

ثم تحسب مقادير هذه الجوائز التي توزع بهذا المعيار وتحسب الأموال التي تودع المصارف لاستغلالها باسم المجمع الموقر ، فإذا هي جدول صغير من ذلك الخضم الغزير على عهدة ذلك الكاتب الأديب ، والمهدة كلها فيما ترويه هنا عليه !

أما أعمال المجمع التي تصدى لها منذ إنشائه فمعجم لا بد من خيرة العاجم يسهل الاستغناء عنه ويبدو نقصه كلما فرغ من طبعه فيعاد تنقيحه وتأليفه ، وإلى جانبه كتاب أجرومية مزيته الأولى أنه مشحون بالأخطاء النحوية والصرفية ، بدأوا به في القرن السابع عشر ولم يفرغوا منه إلا منذ بضع سنوات ( ١٩٣٢ )

وقد عهد إلى المجمع يوم إنشائه في إصدار « قاموس تاريخي » فصدر الجزء الأول منه سنة ١٨٦٥ منتهياً بكلمة Actualité ، وصدر الجزء الثاني بعد ثلاثين سنة ، وسيتمه المجمع على هذا القياس حوالي سنة ٤٨٥٥ بعد الميلاد

ولعل القارئ يذكر ما يجري في الشركات والجماعات الخيرية والحكومية التي ينتدب لها « كاتب سر » أو « وكيل عام » . فإن الشأن الغالب عليها أن يستبد بها كاتب السر أو الوكيل العام بعد حين فلا يقع في ملكه إلا ما يشاء

فهذه العادة الغالبة هي بعينها التي تغلب على الأربعين الخالدين فلا يبرمون ولا ينقضون إلا بمشيئة من كاتبهم المختار ... حتى قال سان بيف : إن هذا الكاتب « يحكم ويملي » في وقت واحد خلافاً للملوك الدستوريين !

* * *

كل هذه الهازل يعلمها الأعضاء الخالدون ويعلمون أنها شائعة على ألسنة الكثيرين ، ولكنهم يجيبون هازلين بلسان فونتينل : « نحن سخرية الساخرين حين نكون أربعين ، ولكننا سيودون مقدسون كلما أصبحنا تسعة وثلاثين !.. »

يريد الشاعر أن المرشحين يتملقونهم ويثنون عليهم كلما مات واحد منهم ، فأصبحوا تسعة وثلاثين وراح الطامعون يتزاحمون على الكرسي الفارغ ، ولكنهم بعد هذا سخرية الساخرين كلما بلغوا تمام العدد المقدور ، ولا ندري لماذا يقف الخلود والخالدون عند الرقم أربعين !!

* * *

والمجامع « الرسمية » جميعها على هذا النمط أو على نمط قريب منه بعد حذف المبالغة الفكاهية التي لا تقوى على تبديل الحقائق التاريخية !

وعزاء هذا أنها إذا أريدت لمرفان الأقدار في إبان نبوغها فهي لا تجدي ولا تنصف ولا تزال متخلفة وراء الصفوف بعد أن يفرغ القارئون من الإعجاب ويفرغ المعجبون من التنويه